الديموغرافيا التاريخية والطواعين في اليمن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م (أنموذجاً)

د/عبد الحميد يحيى محمد الصبري

أستاذ التاريخ المساعد– كلية التربية والآداب والعلوم

خولان –و نائب عميد الكلية للشئون الأكاديمية

الملخص

تعد الأوبئة والأمراض من الكوارث الطبيعية التي تعرض لها اليمن خلال العديد من القرون ومنها القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث انتشر في تلك الفترة مرض الطاعون، مثّل أخطر الكوارث التي أصيبت بها اليمن آنذاك .

ولذا جاء هذا البحث لدراسة طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، للوقوف على طبيعته، ورصده، ومدته، وجغرافيته، ومعرفة إجراءات السلطة الحاكمة حينها تجاه هذا المرض، وما ترتب عليه من آثار ديموغرافية، واقتصادية، وعلمية ودينية، ولتحقيق هذا الهدف تم الاعتماد على المصادر التاريخية وكتب التراجم، والاستفادة من كتب الرحالة والجغرافيين الذين زارو اليمن، وذكروها في مصنفاتهم خلال العصر الوسيط، وبعد الاطلاع على هذه المصادر والمراجع، وفحصها، وتحري المعلومات الواردة فيها، ثم التوصل إلى عدد من النتائج منها: أن طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م كان وافداً عبر البحر من بربرة إلى عدن عن طريق المسافرين، والذي عانى منه اليمنيون لمدة عامين بحسب المصادر، امتد خلالها على مساحة واسعة من أجزاء اليمن بدءا بعدن، ومنها إلى لحج وتعز، وإب، ووصولا إلى صنعاء وصعدة وحجة، واتضح من خلال البحث اقتصار دور السلطة الحاكمة على إجراءات دينية، تنم عن فهم خاطئ لتعاليم الإسلام الحنيف الذي أمرنا بالتداوي، وبذل كل الأسباب لمواجهة أي مرض من الأمراض، وقد كان لانتشار مرض طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م الواسع، وعجز السلطة الحاكمة آنذاك عن مواجهته آثاراً وخيمة وكبيرة على الجانب الديموغرافي، والاقتصادي، والعلمي، والديني.

وعليه فإن الباحث يوصي بإقامة ندوات علمية حول خطورة الأمراض ومنها الطواعين، وسبل الوقاية منها ومكافحتها، كما يوصي بتصحيح المفهومات الخاطئة لدى الناس عن تعاليم الإسلام الحنيف في بذل كافة الأسباب الدينية والطبية لمواجهة الأمراض أيا كانت.

9

مقدمة:

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فيعد البحث في التقلبات المناخية وما ينتج عنها من كوارث طبيعية وأوبئة من أهم الموضوعات في حقل الديموغرافيا التاريخية، لما له من ارتباط وثيق في تفشي الأمراض والأوبئة المرتبطة بفساد الهواء وتلوث البيئة، ومع أهمية الموضوع إلا أنه لم يحظ باهتمام الباحثين اليمنيين، في حين خطت أوروبا خطوات متقدمة، وتوصلت إلى نتائج قيمة، أفادت البحث العلمي بمجالاته المختلفة. ويأتي هذا البحث ليفتح الطريق أمام الباحثين، ويشحذ هممهم في تناول أحداث الكوارث الطبيعية.

وقد تناول الباحث هذا الموضوع رغم العوائق المصدرية وندرة توفرها، ومع ذلك تمت المحاولة في لم شتاتها من كتب الأخبار والحوليات والتراجم والمناقب وتدوين بعض المؤرخين لأحداث هذا الوباء القاتل وأهواله، غير أن أغلبها جاءت عن طريق الإشارات بأوصاف عامة لا تسعف في البحث، بالإضافة إلى أن المتصفح لهذه المصادر يجد أنها تشير إلى أسماء بعض الشخصيات المهمة والعلماء والفقهاء الذين توفوا من جراء هذا الطاعون، والذين ينتمون إلى بعض المدن اليمنية، دون أن تشير هذه المصادر إلى العامة.

كما أننا نرمي من وراء هذا البحث ودراسة مثل هذه الكوارث إلى تصحيح بعض المفاهيم والمعتقدات الخاطئة، التي تغلغلت تعاليمها ومبادئها في أوساط المجتمع اليمني، وحاولنا من خلال هذا البحث التقصي عن الأسباب والعوامل الحقيقية، التي كانت سببا في انتشار الأمراض في اليمن –آنذاك - ومنها طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م.

أثناء الخوض في هذا البحث واجهتنا عدة صعوبات تمثلت أهمها في عدم وجود دراسات يمنية في مثل هذه المواضيع. ورغم ذلك إلا أن الباحث عزم على أن يفتح نافذة جديدة للباحثين اليمنيين، بما توفر لديه من معلومات عن هذا الطاعون .

مشكلة البحث :

تراوحت معالجة موضوع طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م في هذا البحث بين ثلاث مقاربات، جمعت بينها الإشكالية الرئيسية للموضوع، وهي إبراز الحضور القوي للطواعين والأوبئة خلال العصر الوسيط في اليمن، وتتبنى المقاربة الأولى في رصد تاريخ ومصدر طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م ومدته الزمنية، وتحاول المقاربة الثانية أن توضح إلى

حد ما جغرافية الطاعون وموقف السلطة الحاكمة تجاهه، في حين تعرض المقاربة الأخيرة الآثار والعواقب التي خلفها طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، على الجوانب الديموغرافية، والاقتصادية، والدينية.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إجراء دراسة مستفيضة وجادة عن أهم وأخطر الكوارث الطبيعية التي تعرض لها المجتمع اليمن خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ومنها دراسة طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، وطبيعته ومصدره، كما يهدف هذا البحث إلى توضيح جغرافية هذا الطاعون، وإجراءات السلطة الحاكمة آنذاك، كما يهدف هذا البحث إلى معرفة الآثار التي خلفها الطاعون وإظهار خطورة ماخلفه من نزيف ديموغرافي واقتصادي حاد .

أهمية البحث:

يكتسي موضوع طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م أهميه بالغة في كونه يمثل دراسة جديدة ومهمة في تاريخ اليمن الوسيط، ولما ترتب عليه من آثار ديموغرافية واقتصادية والتي كانت سببا في توقف عجلة الحركة والنماء والتطور السكاني في اليمن آنذاك.

أسباب اختيار البحث:

لقد كان من الأسباب التي دفعت الباحث إلى التفكير والبحث والكتابة في طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، رغبته الشديدة في إبراز النزيف الديموغرافي الذي تعرض له المجتمع اليمني آنذاك، فقد كان يحصد الأرواح البشرية بالمئات بل بالآلاف خاصة المدن الكبيرة، وعلى وجه الخصوص طبقة الفقهاء والعلماء والقضاة، فمن جراء هذا الطاعون كان يموت في اليوم الواحد من الخمسمائة إلى الألف(١)، وهذا ما أكده الواسعي موضحا هول الكارثة وحدتها من جراء هذا الطاعون أنه " كان يخرج من صنعاء كل يوم مائة جنازة، وفي آخر يوم من شهر رمضان أخرجت ألف وسبعمائة جنازة، وثاني أيام العيد كذلك"(٢).

بناء على ذلك ومن خلال هذه الأرقام يجد موضوع الدراسة مبرراته وأسباب اختياره والخوض فيه، واقتحام مجالات جديدة ذات صلة بالمناخ في اليمن وآثاره في حدوث الكوارث الطبيعية ومنها طاعون

[1]- ابن الديبع، أبو الضياء عبد الرحمن بن علي: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، حققه وعلق عليه، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٤٨٣، ابن الحسين، يحيى: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة، محمد مصطفى زيادة، القسم الثاني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٢٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٥٧٢ .

[2]- الواسعي، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ط٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٠٦.

٨٣٩هـ/١٤٣٦م. بالإضافة إلى أن هذا الموضوع مازال جديداً على المكتبة اليمنية حيث لم توجد له أي دراسات سابقة.

منهج البحث وخطته:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي، وذلك بالتتبع وجمع المعلومات وفق ما وقفت عليه من مختلف المصادر حول طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، ومعطياته ودراسة هذه المعطيات وتحليلها والاستدلال بها للوصول إلى خلاصة تضم أهم النتائج والاستنتاجات، كما اقتضى المنهج طريقة كتابة التاريخ الهجري وما يقابله من التاريخ الميلادي، محاولا ضبط ذلك قدر الإمكان، وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث في كل مبحث ثلاثة مطالب ومهدت لها بمقدمة وخاتمة واستنتاجات وتوصيات، وقد اعتمد البحث الإيجاز في تناول هذا الموضوع .

وقد تم تقسيم البحث على النحو الأتي:

- المبحث الأول: تاريخ طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م وطبيعته ومصدره ومدته.
  - المطلب الأول: تاريخ الطاعون .
  - المطلب الثاني: مصدر الطاعون.
  - المطلب الثالث:المدة الزمنية للطاعون .
- المبحث الثاني: جغرافية طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م وقوته وإجراءات السلطة.
  - المطلب الأول: جغرافية الطاعون.
  - المطلب الثاني: قوة الطاعون ومسمياته.
  - المطلب الثالث: إجراءات السلطة الحاكمة.
- المبحث الثالث: الآثار التي خلفها طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م.
  - المطلب الأول: الأثر الديموغرافي.
  - المطلب الثاني: الأثر الاقتصادي.
  - المطلب الثالث: الأثر الديني والعلمي.

المبحث الأول

تاريخ طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م وطبيعته ومصدره ومدته.

إن المعلومات التي تقدمها المصادر التاريخية اليمنية، وكتب التراجم حول طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، محدودة ومقتضبة، فهي أوصاف تشير إلى البلاد بأكملها، ضمن إشارات عامة وسريعة، ورغم بخل الإشارات المتعلقة بهذا الطاعون سوف نسلط الضوء بما توفر منها بتكوين فكرة حول بداية الطاعون ومصدره وطبيعته .

المطلب الأول: تاريخ طاعون٨٣٩ هـ/١٤٣٦م وطبيعته.

تتفق المصادر التاريخية اليمنية حول تاريخ بداية طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، فقد أرخ كل من ابن الديبع، وابن الحسين أن الطاعون دخل عدن سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م(١)، غير أنها لم تسمح بتحديد الفترة الزمنية بدقة، حيث أغفلت ذكر اليوم والشهر، فلما تحدث ابن الديبع عن هذا الطاعون لم يورد التاريخ الدقيق لكل من اليوم والشهر، لكنه تتبع انتقاله شيئا فشيئا، طوال السنتين تقريبا، وعلى الرغم من أنه أفادنا بأن الطاعون عم مختلف البوادي اليمنية، لم يستثن الحواضر الكبرى، بما فيها مدينة صنعاء، وبالمقابل قصرت المصادر التاريخية الأخرى حديثها عن هذا الطاعون، وليس هناك تعارض بين مختلف الروايات حول السنة التي تعرض لها اليمن لمرض الطاعون أنه في سنة تسع وثلاثين وثمان مائة حصل في اليمن طاعون عظيم(٢)، بينما أضاف ابن الديبع(٣)، والواسعي(٤)، معلومات قيمة تفيد أن الطاعون دخل مدينة صنعاء وما حولها في سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م، وتميز الواسعي عن غيره حيث دقق في تحديد دخول الطاعون مدينة صنعاء، وذلك في شهر شعبان من سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م، لكن بالمقابل أشار يحيى بن الحسين إلى أنه في آخر سنة ٨٣٩هـ /١٤٣٦م، اتصل الطاعون بصنعاء والظواهر(٥)

---

[١]- ابن الديبع، أبو الضياء عبد الرحمن بن علي: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م،، ص٤٨٣، ابن الحسين، يحيى: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة: محمد مصطفى زيادة ،القسم الثاني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٢٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٥٧٢.

[٢]- ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق:عبد الله الحبشي،مركز الدراسات اليمنية، صنعاء،١٩٧٩م، ص١٠٩، الخزرجي، أبو الحسن علي ابن الحسن:العسجد المسبوك فيمن ولي من الملوك، طبعة ثانية مصورة،١٤٠١هـ/١٩٨١م، الجمهورية العربية اليمنية، وزارة الإعلام والثقافة، مشروع الكتاب ٦/١، ص٥١٣ـ٥١٤، بامخرمة، أبو الطيب بن عبدالله بن احمد(ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م): قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، المجلد الثالث، دراسة وتحقيق: محمد يسلم عبد النور، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٣٥٦٢ـ٣٥٦٣.

[٣]- ابن الديبع: قرة العيون، ص٤٨٣ .

[٤]- الواسعي، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ط٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٠٦.

[٥]- الظواهر: كل ما ارتفع من البلدان يسمى ظاهرا، كذا بالإضافة إلى محله كظاهر همدان، المراد بها جبال همدان وسمي بهذا الاسم تسيع الظاهر من اتساع بني صريم، وهو يشمل مدينة خمر والوادي، ويشيع والعقيلي، الحجري، مجموع بلدان اليمن، مج٢، م، س، ص٥٦٣ .

وصعدة(١)، غير إن تشخيص هذا المرض يستدعي الاعتماد على الدراسات الحديثة، ومقابلتها مع ما أوردته المصادر التاريخية اليمنية في هذا المجال على الرغم من شحتها، واعتمدت على ما خلفه هذا الطاعون عدداً كبيراً من الهالكين والنزيف الديموغرافي، مما يجعلنا نؤكد أن هذا الوباء يتعلق بالطاعون سواء كان من النوع المسمى بالطاعون الدملي، الذي تظهر آثاره على المصاب، وقد يشفى المصاب من هذا المرض، وقد يؤدي إلى الوفاة، أو النوع الآخر المعروف بالطاعون الرئوي، ومن أعراضه أن المصاب تأخذه قشعريرة، ولم تظهر عليه الدماميل، ويموت خلال ٢٤ساعة، وتتعفن جثته بسرعة(٢)، وفي هذا السياق أفادنا ابن الديبع، ويحيى بن الحسين بنص بالغ الدلالة عن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، الذي عصف باليمن فلقد كان يموت في اليوم الواحد من الخمسمائة إلى الألف (٣)، وبالتالي هذا العدد الكبير في الوفيات كان يوميا يشير إلى أن هذا الطاعون من النوع الثاني "الطاعون الرئوي".

وهكذا نخلص مما سبق إلى أن الطاعون ظهر بعدن في عام ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، ومنها تسرب إلى لحج وأبين ثم إلى نواحي تعز، ووصل إلى صنعاء وضواحيها في عام ٨٤٠هـ/١٤٣٧م ونظل نتساءل: ما مصدر الطاعون ؟

المطلب الثاني

مصدر طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م

تبين للباحث بعد الاطلاع على مجموعة من المصادر أن مصدر طاعون ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م، يعتبر امتداداً للوباء الذي تعرض له اليمن خلال عام٨٣٧هـ/١٤٣٤م، حيث ترك جيوبا منعزلة بعد انحساره وظلت هذه الجيوب خامدة لمدة سنة ليعود المرض من جديد في سنة٨٣٩هـ١٤٣٦م، وساعد ذلك الأمطار الغزيرة التي سقطت على الجهات الجنوبية من اليمن، التي استمرت لأكثر من شهرين أشارت إلى ذلك بعض المصادر أنه:" في سنة ٨٣٧هـ حصل خريف عظيم وكثر المطر ووقع في مدينة زبيد مطر عظيم...ولم يبق بيت إلا حصل فيه الخراب وسال الوادي نيفا وستين يوما متصل الأيام والليالي لم ينقطع ساعة واحدة وعم الموت جميع البلدان(٤)".

---

[١]- ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، م، س، ص٥٧٢.
[٢]- البزاز، محمد الأمين: تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٢م، ص٩١ .
[٣]- قرة العيون، ص٤٨٣،غاية الأماني، ص٥٧٢.
[٤]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١٠٩،الخزرجي: العسجد المسبوك، م، س، ص٥١٣ ـ ٥١٤

ويتضح أن الأمطار الغزيرة والمستمرة في جنوب اليمن، أسهمت في ظهور هذه الجيوب التي كانت خامدة، واندلاع الأمراض وانتشارها على نطاق واسع، بالإضافة إلى أن مرض الطاعون قد ظهر خلال هذه الفترة في مدينة بربرة(١)، الأفريقية الواقعة في الجهات المقابلة للسواحل اليمنية الجنوبية، ومن الطبيعي جدا أن تتأثر اليمن بما حل بالمدن الأفريقية الساحلية، عبر السفن التجارية والمسافرين القادمين إلى اليمن، وعدن على وجه الخصوص التي تعرضت لمرض الطاعون متزامنا أثناء ظهوره في بربرة أكد ذلك ابن الديبع بقوله:"وكان ابتداؤه في سنة تسع وثلاثين في بربرة وعدن(٢)". واضح من خلال النص وحدة الكارثة المتمثلة في الطاعون الذي ألم باليمن وبعض المدن الإفريقية في وقت واحد.

واتضح أن هذا المرض انتقل إلى اليمن عن طريق البحر عبر السفن التجارية، والمسافرين القادمين من الموانئ الإفريقية، حيث كانت عدن –آنذاك - تمثل أنشط المدن التجارية، ومنها انتقل الطاعون تدريجيا حتى عم جميع الأراضي اليمنية، كما ساعد في انتشار هذا المرض عدة عوامل منها:

١- في سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٥م، ظهرت النار في جبل الأبعلة وكان يسمع دويها كالرعد في أمكنة بعيدة كالحية(٣) والجردة وما قاربها من البراري(٤)، ومن خلال النص يتضح أن الكوارث الطبيعية ومضاعفاتها السلبية لها تأثير بيئي وصحي، ولاشك أن آثار هذا البركان أسهم في ظهور الطاعون خلال هذه الفترة

٢- ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة وانتشار الأمراض، خلال فترة وقوع الطاعون في بعض الجهات اليمنية، مثل عدن ولحج وأبين وغيرها، مما جعل هذه المناطق والجهات شديدة الوباء، ويؤكد ذلك ما أوردته بعض المصادر حيث ذكرت أن فروة بن مسيك المرادي قال:"يا رسول الله إن أرضا عندنا يقال لها: أبين هي أرض ميرتنا وريفنا، وهي وبيئة شديدة الوباء، فقال له النبي صلى الله عليه

---

[١]- مدينة بربرة: بلاد بين الحبشة وبلاد الزنج واليمن، على ساحل بحر اليمن وبحر الزنج، انظر الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ/١١٨٨م): معجم البلدان، مج١، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ٣٦١، وذكر الهمداني، أنها قاطعة من حد سواحل اليمن ملتحقة في البحر بعدن من نحو مطالع سهيل إلى ما شرق عنها، أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م): صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٩٣.

[٢]- ابن الديبع: قرة العيون، ص٤٨٣.

[٣]- اللحية: بلدة من تهامة على ساحل البحر الأحمر شمالي الحديدة على مسيرة يومين وهي فرضة وادي مور، الحجري، مجموع بلدان اليمن، مج٢، م، س، ص٦٧٩.

[٤]- ابن الديبع: قرة العيون، ص٤٨٢.

وسلم"دعها"، فإن من القرف التلف"(١)، وفي المنحى ذاته عرف عن مدينة غلافقة(٢) الساحلية أنها وبيئة، أورد المقدسي(٣)، إنها وبيئة قاتلة للغرباء، ومن ثم فالعامل الطبيعي يرتبط بظاهرة فساد الهواء، لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة(٤)، وبالتالي هذه العوامل ساعدت في انتقال عدوى هذا المرض من مدينة عدن إلى بقية المدن اليمنية الأخرى مثل لحج وأبين وتعز وغيرها.

ومن ثم نستنتج أن التحولات المناخية شكلت معضلة بنيوية ألمت باليمن وأسهمت إلى جوانب عدة في انتقال العدوى وحدوث المرض، وزادت من تفاقم حدة النزيف البشري بحكم عوامل انتقال العدوى، بعد ما تبين أن الطاعون وافد من خارج اليمن، الأمر الذي تطلب منا معرفة المدة الزمنية التي استغرقها الطاعون في اليمن.

المطلب الثالث

المدة الزمنية لطاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م

استمر طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، في اليمن فتره طويلة تراوحت بين سنة٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م، وسنة٨٤٠هـ/١٤٣٧م، حيث كان ابتداء الطاعون في سنة تسع وثلاثين في بربرة وعدن (٥)، وانتقل من عدن تدريجيا إلى لحج وأبين ثم تعز(٦)، غير أن المصادر السالفة كانت رواياتها عمومية لم تحدد يوماً ولا شهراً، لتنقل الطاعون من مدينة مدينة إلى أخرى، والمؤلف الوحيد الذي أورد لنا إشارة في غاية الأهمية هو ابن الديبع، أنه في سنة أربعين دخل الطاعون مدينة صنعاء ونواحيها(٧)، بينما يشير ابن الحسين إلى إنه في آخر سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، اتصل الطاعون بصنعاء والظواهر وصعدة(٨)، مما يؤكد أن مراحل انتقال الطاعون من عدن إلى صنعاء استغرق عاماً كاملاً، ومما يدعم الملاحظة أن الطاعون استمر في الزحف حتى السنة الموالية، فخلال سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م، سرى الطاعون إلى بلاد المغارب(٩)، فهلك منه خلائق لا يحصون، ومنه مات الإمام المهدي لدين

---

[١]- العرشاني، نظام الدين سري بن فضيل(ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): كتاب الاختصاص ذيل تاريخ مدينة صنعاء، حققه: حسين عبدالله العمري، ط٢، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٥٢٩، الرازي، احمد بن عبد الله(ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م): تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق ودراسة: حسين عبدالله العمري، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص١٤٤.

[٢]- غلافقة: قرية على ساحل البحر الأحمر من ساحل بلاد الزرانيق كانت من قبل فرضة زبيد، الحجري، مجموع بلدان اليمن، مج٢، م، س، ص٦٢٥.

[٣]- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه، محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، السلسلة الجغرافية(١)، ص٨٥.

[٤]- ابن هيدور: ماهية الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم(٩٦٠٥).

[٥]- ابن الديبع: قرة العيون،ص٤٨٣.

[٦]- ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص،٨٣ ابن الحسين: غاية الأماني، م، س، ص٥٧٢.

[٧]- ابن الديبع: قرة العيون، ٤٨٣.

[٨]- ابن الحسين: غاية الأماني، م، س، ص٥٧٢.

[٩]- المغارب: بلد من ناحية صعفان وأعمال حراز، الحجري، مجموع بلدان اليمن، م، س، ص٧١٥.

لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى في شهر صفر من هذه السنة (١)، وفي الوقت نفسه سرى الطاعون إلى صعدة صعدة وبلاد حجة وشظب(٢) والعميشة(٣)، ولاشك أنه استغرق وقتا طويلا متنقلا بين المدن والأرياف، بينما بينما يبين لنا أحد المؤرخين، مراحل انتقال الطاعون في السنة والشهر الذي دخل فيه الطاعون صنعاء، فقد كان حسب قوله:" إن الطاعون ابتدأ من مدينة تعز، وإنه لم يزل يتتبعها قرية قرية...حتى وصل صنعاء في شهر شعبان من سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م"(٤)، وتكمن أهمية هذه الرواية في التدقيق في تحديد الشهر الذي دخل فيه الطاعون صنعاء، وأن الطاعون أمضى عشرة أشهر من سنة٨٤٠هـ/١٤٣٧م، حيث يضيف أن الطاعون استمر إلى شهر شوال من السنة المذكورة، وأنه في آخر يوم من شهر رمضان أخرجت ألف وسبعمائة جنازة، وثاني أيام العيد كذلك.

لقد وقع هذا حسب الواسعي أن ملازمة الطاعون الذي دام بقية سنة ثمان مائة وأربعين، أنه انتقل إلى بلاد صعدة وبلاد حجة، ومنها إلى شظب والعميشة، كل ذلك يشير إلى أن الطاعون استمر لفترة زمنية تقدر بعامين، متنقلا بين مختلف المدن اليمنية، وهذا يدفعنا إلى معرفة جغرافية طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م.

المبحث الثاني

جغرافية طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م وقوته وإجراءات السلطة الحاكمة .

إن المادة التاريخية المستخلصة من جُل أجناس الكتب التي تم الاطلاع عليها، عبارة عن إشارات متفرقة وعمومية وردت بشكل هامشي وغير مباشر عن قوة الطاعون وجغرافيته، ودور السلطة في الحد من انتشاره، لذلك كان الرجوع إلى كتب التراجم والطبقات والتي أشارت إلى تواجد العلماء والفقهاء في مختلف المدن اليمنية، وسنوضح ذلك بالآتي:

المطلب الأول

جغرافية طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م

تتعدد النصوص التي تشير إلى أن الطاعون كان عامّاً في اليمن، ويكفي أن نلقي نظرة على تسرب الطاعون وانتقاله من مدينة إلى أخرى حتى عم اليمن كلَه، بالاعتماد على أوصاف الإخباريين، ومن خلال

---

[١]- ابن الحسين: غاية الأماني، م، س، ص٥٧٣.

[٢]- شظب: بلد قرب السودة وإليه تنسب سودة شظب وكانت هجرة شظب من مدارس العلم في اليمن، الحجري، مجموع بلدان اليمن، مج٢، م، س، ص٤٥٢.

[٣]- ابن الديبع: قرة العيون، ٤٨٣-٤٨٤.

[٤]- الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦.

رصد بعض الروايات التي ذكرت بعض المدن اليمنية، وتراجم بعض العلماء والفقهاء والولاة، الذين توفوا من جراء هذا الطاعون والذين ينتمون إلى بعض المدن اليمنية.

ففي الجهة الجنوبية حاول الباحث رصد المدن التي سرى إليها الطاعون، فقد بدأ ظهور الطاعون في مدينة عدن، ثم تسرب إلى لحج وأبين ثم إلى نواحي تعز ثم دخل ثعبات(١)، ولاشك أن الطاعون ضرب هذا النطاق الجغرافي، لاسيما القرى والأرياف المحيطة بهذه المدن عبر الطريق البري، الذي يربط بين صنعاء وعدن طريق جبلي يبدأ من عدن إلى الجوءة (٢)، والجند وذي أشرق وإب وذمار وصنعاء(٣)، ثم استشرى تدريجيا إلى مدينة ذي السفال، حيث توفى من مرض طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، الفقيه هاشم، والفقيه شرف الدين أبو القاسم بن محمد الشعبي، والفقيه برهان الدين إبراهيم بن محمد البريهي(٤)، ومنها تسرب إلى ذي جبلة(٥)، حيث توفى فيها متأثرا بهذا المرض الفقيه جمال الدين محمد بن عمر، والقاضي وجيه الدين عبد الرحمن عبدالله بن أبي بكر، وولده جمال الدين محمد(٦)، الشيء نفسه شهدته مدينة إب في سنة٨٣٩هـ/١٤٣٦م، حيث ذكرت المصادر أنه توفى فيها الفقيه محمد بن عبدالله الكاهلي، متأثرا من وباء الطاعون المذكور(٧). الأمر نفسه لاحظه البريهي(٨)، عندما ترجم لعدد كبير من الفقهاء والعلماء في مخلاف إب، والذين كانت وفاتهم في هذا المخلاف متأثرين من ألم طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م(٩)، وامتد بعد ذلك على نطاق جغرافي واسع شمل المناطق المناطق الوسطى والجبلية، فقد شمل المخادر(١٠)، وممن توفى بها متأثرا بهذا الوباء القاضي عفيف الدين بن

١- ابن الديبع: قرة العيون، ٤٨٣.

٢- الجوءة: بلد قريب الجند من أرض اليمن، وهي فيما مضى مسكن الملوك ومن المدن الكبار المعروفة بكثرة العلماء والفضلاء، الحجري، مجموع بلدان اليمن، مج١، م، س، ص٢٣٥- ٢٣٦.

٣- الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي (ت٣٤٦هـ/٩٥٣م): مسالك الممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، وزارة الإرشاد القومي، الجمهورية المتحدة، ص٢٧- ٢٨.

٤- البريهي، عبد الوهاب عبد الرحمن السكسكي: طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص١٣٩- ١٤١.

٥- ذي جبلة: من أعمال إب وهي في الجنوب الغربي عن إب، وتسمى ذات النهرين وهي من أحسن مدن اليمن وأنزهها وأطيبها، الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن علي الأكوع، المجلد الأول، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٣٤.

٦- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، ص ١٢٨- ١٢٩- ١٣٣.

٧- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١١١-١١٢،الخزرجي: العسجد المسبوك، م، س، ص٥١٥، بامخرمة: قلادة النحر، مجلد٣، م، س، ص٣٥٦٢-٣٥٦٣.

٨- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، ص ٩٢- ٩٤- ٩٥- ٩٦- ٩٧.

٩- توفى من مرض طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، في مدينة إب الفقيه جمال الدين محمد بن حسن البريهي، والفقيه جمال الدين محمد بن يوسف الاشرفي الكلالي، والعلامة جمال الدين محمد بن عبدالله الكاهلي، وصفي الدين احمد بن عبدالله الكاهلي، وصفي الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر البريهي، وغيرهم كثير، البريهي: طبقات صلحاء اليمن، ص ٩٢- ٩٤- ٩٥- ٩٦- ٩٧.

١٠- المخادر: من أعمال إب متصلة بها من جهة الشمال، وهي كثيرة الخيرات، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، م، س، ص٤٦ .

علي بن محمد سالم (١)، وتوغل في الجبال العالية حتى وصل مدينة صنعاء، في السنة الثانية من انتشاره٨٤٠هـ/١٤٣٧م(٢)، ففي شهر محرم من السنة المذكورة مات المنصور علي بن صلاح متأثرا بهذا المرض(٣)، ولم يكتف هذا المرض على صنعاء، بل تعداها وكانت له آثاراً بغيرها من المدن والقرى، حيث توفي الإمام المهدي بالظفير(٤)، بالطاعون المذكور وقبر بها في سنة٨٤٠هـ/١٤٣٧م(٥)، وواصل الطاعون زحفه حتى وصل إلى منطقة حراز(٦)، وممن توفى بها متأثرا بهذا المرض عبدالله بن عبد الرحمن بن الفقيه جمال الدين الدين المشهور بالشنيني(٧)، ويبدو أن الطاعون قد وجد أرضيه مناسبة لانتشار العدوى، حيث امتد جغرافيا إلى الجهات الغربية ليسود بلاد حجة(٨)، وصعدة(٩) وشظب والعميشة(١٠)، والملاحظ أن المؤلف أتى ببعض الضبط حين تعلق الأمر بالجهات الغربية، ولعل المقصود هنا هو جهات حجة وصعدة، ولاسيما أن هذه المناطق تقع على مسافات بعيدة من صنعاء .

من خلال هذه الإشارات السالفة الذكر نستنتج أن هذا الطاعون اجتاح مساحة جغرافية واسعة خلال سنوات٨٣٩هـ/١٤٣٦م،و٨٤٠هـ/١٤٣٧م، وذكرت المدن والقرى التي أصابها الطاعون، غير أن هناك مدناُ لم تتطرق لذكرها المصادر، مثل حضرموت، وشبوة، والمهرة، وغيرها من المدن، ويبدو أن هذه المناطق كانت بمنأى عن هذا الطاعون، ولعل ما ساعد ذلك الصحاري التي تفصل بين هذه المناطق، والتي حالت دون وصول هذا المرض إليها.

---

[١]- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، ص٥٥- ٥٦.
[٢]- ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص٤٨٣، الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦ .
[٣]- ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، م، س، ص٥٧٣.
[٤]- الظفير: حصن من أعمال حجة مشهور يعرف بظفير حجة، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، م، س، ص٥٦٧
[٥]- الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦- ٢٠٧.
[٦]- حراز: صقع واسع غربي صنعاء، مركزه مناخة في رأس جبل حراز تبعد عن صنعاء مرحلتين، الحجري، مجموع بلدان اليمن، م، س، ص٢٥٢.
[٧]- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، م، س، ص٤٨- ٥٥ .
[٨]- حجة: بلد مشهور من بلاد همدان في الشمال الغربي من صنعاء على مسافة ثلاث مراحل، وبلاد حجة واسعة وأعمالها كثيرة، الحجري، مجموع بلدان اليمن، م، س، ص٢٤٢، ٢٤٤،٢٤٣.
[٩]- صعدة: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخا، وصعدة مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد وبها مدابغ الأدم وجلود البق التي للنعال، وهي خصبة كثيرة الخير، الحجري، مجموع بلدان اليمن، م، س، ص٤٦٧.
[١٠]- ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص٤٨٣- ٤٨٤ .

المطلب الثاني

قوة طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م ومسمياته

أوردت المصادر التاريخية معلومات مهمة تشير إلى قوة طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، بقولهم:"حصل في اليمن طاعون عظيم"(١)، وللرواية مغزاها الحقيقي بحيث لا تنطوي على مبالغة بدليل أن المصادر أشارت إلى عظمة عظمة هذا الطاعون، وكثرة الهالكين وإخلاء للقرى والمنازل في مختلف الجهات اليمنية، وارتباطا بعظمة الطاعون نجد أن التقلبات المناخية والظروف الطبيعية المحلية لانتشار العدوى زادت من قوة الطاعون، وأسهم في تفاقم حدة الطاعون، تصرفات الناس البدائية والتقليدية، وضعف قدرتهم على التعامل مع هذه الأوبئة، كل ذلك أسهم في تفشي الطاعون وتعاظمه وانتشاره على نطاق واسع، كما يجب أن نشير إلى تردد الأوبئة وتواليها على فترات زمنية متقاربة، والتي سببت نزيفا ديموغرافيا خطيرا جعل المجتمع يقع تحت مأساة حقيقية، ظهرت آثارها في طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، مصداقا لذلك ما تعرضت له مدينة زبيد وغيرها في سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م، لموت عظيم وكثر المرض في الناس(٢)، ومن المعروف أن هذا الوباء المذكور كان عظيما، فقد شمل جميع البلدان وعم الموت فيها(٣)، ولا نستبعد أن يكون هذا الطاعون قد أثر بطاعون سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، وأكسبه قوة تدميرية، لأنه جاء بعد عام واحد من وقوعه، والتي كانت نتائجه كارثية وعظيمة ومأساوية على المجتمع اليمني آنذاك .

وخلاصة القول فإن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، كان عنيفا فقد فتك بأعداد هائلة من ساكنة المجتمع اليمني آنذاك، وعلى مختلف الأعمار والطبقات، ومن النصوص الدالة على ذلك ما أشارت إليه المصادر من أنه مات باليمن بسببه من أعيانها خلائق لا يحصون، ولم يجد المعاصرون لهذا الطاعون من الكلمات التي تسعفهم في وصف الأهوال التي خلفها، فعبروا عنه ونعتوه بعدة ألقاب تميزه عن غيره من الطواعين والأوبئة السابقة واللاحقة، فقد عرف بسنة الجفلة (٤). وبالتالي دلت هذه التسمية على قوة الطاعون وفداحة الهدر الديموغرافي الذي خلفه والذي استمر حسب تتبع الطاعون لمدة سنتين أطال فيها مجال النزيف الديوغرافي،

---

[١]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١١١، الخزرجي: العسجد المسبوك، م، س، ص٥١٥، بامخرمة: قلادة النحر، مجلد٣، م، س، ص٣٥٦٢، الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦.

[٢]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص ١٠٩.

[٣]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص ١٠٩.

[٤]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١١١-١١٢، قرة العيون، م، س، ص٤٨٣،الخزرجي: العسجد المسبوك، م، س، ص٥١٥، بامخرمة: بامخرمة: قلادة النحر، مجلد٣، م، س، ص٣٥٦٢، ومعنى الجفلة: جفل: أي جفل اللحم عن العظم والشحم عن الجلد والطين عن الأرض، يجفله جفلا وجفلة كلاهما قشره، قال الأزهري: والمعروف بهذا المعنى جلفت، وكان الجفل مقلوب وجفل الطير عن المكان: طردها، ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، المجلد الأول، باب الجيم، دار المعارف، القاهرة، ص٦٤٣.

مما يدفعنا ذلك إلى التساؤل: ما الإجراءات التي اتخذتها السلطات الحاكمة في اليمن للحد من انتشار طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م ؟.

المطلب الثالث

إجراءات السلطة الحاكمة

بالرغم من محاولة السلطة السياسية الحاكمة في اليمن آنذاك بطريقة أو بأخرى التخفيف أو الحد من انتشار طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، وزحفه من منطقة إلى أخرى، غير أن الباحث لم يحصل على تدخل طبي واضح، فالسلطان الظاهر الأيوبي تصدق بصدقات كثيرة، لعل الله يخفف على الناس من آثار هذا المرض، ويبدو أن مثل هذه الإجراءات كان يلجأ إليها أفراد المجتمع لدرء مثل هذه الكوارث، فلم يكن أمامهم سوى التصدق بالمال وقراءة القرآن والدعاء لرفع الطاعون، بالإضافة إلى اعتقاد عامة الناس والسلطة الحاكمة بأهمية بعض الكتب ككتاب صحيح البخاري، ونجد ضمن هذه الإشارات المتوفرة إلى تدخل السلطة لمساعدة الرعية للتخفيف من هول هذا الطاعون، فقد أمر السلطان الظاهر بقراءة القرآن وقراءة صحيح البخاري وبالدعاء له وللمسلمين(١). ويبدو أن هذه الإجراءات تمثلت باللجوء إلى الله -عز وجل -، والعمل بحديث النبي صلى الله عليه وسلم :" داووا مرضاكم بالصدقة"(٢)، وذلك للتخفيف من حدة وهول ما حل بهم .

بالمقابل فإن الأطباء والبيمارستانات كانت موجودة بأعداد محدودة، ومع ذلك لم يكن لها أي دور تجاه هذا المرض، لأنه كان من الأمراض غير المعروفة، ولم يكن له علاجاً مكتشفا آنذاك، ولذا كان الناس يواجهون الأوبئة والطواعين باستسلام، ويرغبون أنفسهم بالشهادة، لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم:"الطاعون شهادة لأمتي، وخز أعدائكم من الجن، غدة كغدة الإبل، تخرج بالإبط والمرافق، من مات فيه مات شهيدا، ومن أقام فيه كان كالمرابط في سبيل الله، ومن فر منه كان كالفار من الزحف"(٣)، بالإضافة إلى أن بلاد اليمن كانت حدودها مفتوحة، ولم نعثر على أية إشارة فيما يخص نظام الحجر الصحي والاحتراس من الدول المجاورة، وضبط جميع القادمين سواء في الحدود البرية، أو البحرية، وقد يرجع ذلك إلى عدة أمور منها:

١. رغبة السلطة في تدفق الوافدين إليها لدعم الجانب التجاري .

---

[١]- ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص ٤٨٣.

[٢]- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، باب وضع اليد على المريض والدعاء له بالشفاء ومداواته بالصدقة، ج٣، دار الفكر، دون مكان وتاريخ الطبع، ص٣٨٢.

[٣]- الألباني، محمد بن ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المجلد الرابع، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣، ١٤٠٦هـ/٢٠٠٠م، رقم الحديث (١٩٢٨)، ص٥٦١ .

٢. عجز السلطة عن ضبط حدودها، ومنع تدفق الوافدين إليها .

٣. موقع اليمن الوسيط بين بلدان شرق آسيا وأفريقيا، ودول البحر الأبيض المتوسط، جعلها نقطة التقاء وعبور لتلك البلدان.

مما سبق تبين أن إجراءات السلطة ضد مرض الطاعون كانت ضعيفة وليس لها دور يذكر، ولاشك أن انعدام أسلوب الوقاية والاحتراس والحجر الصحي في اليمن سهل انتشار مرض طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م وتنقله بسهولة مما جعله يحصد أرواح الآلآف من البشر.

المبحث الثالث

آثار طاعون٨٣٩ هـ/١٤٣٦م

أدى ضعف دور السلطة الحاكمة في اليمن تجاه انتشار مرض الطاعون، إلى تفاقم العديد من المشكلات. وفي المجالات المختلفة، وهذا يعني أن لهذا المرض آثاراً انعكست على كثير من الجوانب، وسنركز في بحثنا هذا على الأثر الديموغرافي والاقتصادي والديني والعلمي .

المطلب الأول

الأثر الديموغرافي.

عرفنا أن اليمن أصيب بمرض وباء في مدينة زبيد وغيرها للعام ٨٣٧هـ/١٤٣٤م، ترتب عليه نزيف ديموغرافي حاد بسبب الموت الجماعي للسكان، والأرقام التي ذكرها ابن الديبع، تدل على هول الكارثة، فقد ذكر أنه وقع بمدينة زبيد موت عظيم حتى بلغ الذين يخرجون من الأبواب في كل يوم ثلاثين ميتا(١)، وعاد هذا المرض الخطير مرة أخرى في عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م، أي لم يفصل بين مرض وباء ٨٣٧هـ/ وطاعون ٨٣٩هـ سوى عام واحد، وبهذا تعود المحنة على اليمنيين من جديد قبل أن يتعافوا من المحنة الأولى.

وأدى طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م إلى انهيار ديموغرافي حاد بالمجتمع اليمني بسبب الهلاك الجماعي للسكان . جعلت بعض الكتاب يوصفونه بأوصاف هامة منها:"مات بسببه من أعيانها خلائق لا يحصون"(٢)، و"هلك منه عالم لا يحصى"(٣)، و"أخلى المدن والقرى"(٤)، بينما أغفل هؤلاء الكتَّاب ذكر العامة التي تمثل شريحة

---

[١]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص ١٠٩.
[٢]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١١١- ١١٢، قرة العيون: م، س، ص٤٨٣، الخزرجي: العسجد، م، س، ص٥١٥.
[٣]- ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، م، س، ص٥٧٢.
[٤]- الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦ .

كبيرة في المجتمع، وعلى الرغم من طابعها الوصفي العام، إلا أنها تؤكد أن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، كان شديدا، وأنه أودى بحياة عدد كبير من الناس في المدن والقرى على حد سواء . ولاشك أن فئة الضعفاء والمساكين كانت أكثر ضحاياه، ولم تكن الفئات الميسورة والعلماء والفقهاء بمنأى عن ضربات هذا الطاعون، فقد ترجم البريهي(١)، لعدد كبير منهم والذين توفوا باليمن من جراء هذا الطاعون .

وفي المنحى ذاته أضاف ابن الديبع نصا يكشف أن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، حصد أرواح المستضعفين من سواد المجتمع ويدقق في عدد الهالكين في مدينة عدن وتعز، وأكد هذا النص يحيى بن الحسين، فقد ذكر ابن الديبع إنه:"هلك من أهل عدن منه بضعة عشر ألفا على التقريب، ومن تعز كذلك وما بينهما أكثر من ذلك"(٢)، ومن ثم يمثل هذا النص دليلا واضحا على هول هذا الطاعون، وفي هذا السياق أفادنا يحيى بن الحسين بنص بالغ الدلالة عن هذا الطاعون الذي عصف باليمن، فقد أشار أنه:" كان يموت في اليوم الواحد من الخمسمائة إلى الألف، وخلت قرى كثيرة"(٣)، وبالتالي تمثل هذه النصوص أهمية بالغة، وتبين فقط عدد الوفيات في عدن وتعز، وليس أعداد الهالكين في جميع أنحاء اليمن، ومعلوم أن هذا النوع من الأمراض تؤدي إلى مجازر حقيقية في البنية الديموغرافية والسكانية، فالكارثة لا تميز بين طفل ورجل وامرأة ولا بين غني وفقير، فقد فتك الطاعون بالناس من مختلف الفئات والأعمار، وأن الطاعون نال من السكان مقصده، الأمر الذي يترتب عليه هلاك بشري يصعب تعويضه في فترة زمنية معينة حيث امتد ليشمل المناطق الجنوبية والساحلية لليمن.

لم تكن صنعاء بمنأى عن هذا المرض الخطير، فقد أكدت الإشارات امتداد هذا الطاعون إلى أوساط اليمن وأعاليها في الجهات الشمالية، خلال السنة التالية، وانتقلت بلواه إلى هذه الجهات، فقد ذكر الواسعي أنه كان يخرج من صنعاء كل يوم مائة جنازة، وفي آخر يوم من شهر رمضان أخرجت ألف وسبعمائة جنازة، وثاني العيد كذلك، حتى أغلقت الدور والمساجد(٤)، علما أن مدينة صنعاء وما حولها كانت عامرة بالمساكن والسكان حيث أحصي ما حولها من الدساكر والقرى بعشرة آلاف قرية من جوانبها الأربعة(٥)، مما يجعلنا نجزم أن صنعاء وما حولها تعرضت لنزيف ديموغرافي حاد جراء طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م .

---

[١]- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، م، س، .
[٢]- ابن الديبع: قرة العيون: م، س، ص٤٨٣، ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، م، س، ص٥٧٢.
[٣]- ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، م، س، ص٥٧٢، ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص٤٨٣.
[٤]- الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦ .
[٥]- الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، م، س، ص١٤٧

لقد كان هذا الطاعون فظيعا حقا فلم تهمله الكتب التاريخية في خبرها مجملا، فقد عم اليمن سهله وجبله، ولم يكد يسلم منه أي بيت، حيث تبين من خلال الإشارات أن الطاعون شمل جميع مناطق اليمن، وأنه كان واسعا ومهيلا، وخلف فراغا في ساكنة اليمن عموما، والمدن على وجه الخصوص التي كانت عامرة بالسكان والتي استهدفها الطاعون .

لقد كانت الأوبئة فاعلا في كثير من التحولات الديموغرافية التي عرفها اليمن، وما ذلك إلا أن هذه الظاهرة كانت من الشمول والحدة. بحيث تحكمت في ما عداها من جوانب الحياة في اليمن آنذاك، ولعلنا نستنتج من خلال ما قدمته بعض المصادر من أرقام لها دلالات مهمة حول ما خلفه هذا الطاعون ونرجح كل ذلك إلى عوامل عديدة ساعدت على انتشار الطاعون بين مختلف فئات المجتمع اليمني ومنها :

أولا: إن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، جاء بعد سنة على تعرض البلاد لوباء سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م، ولاشك أن هذا الأخير خلف مآسياً بشرية حقيقية بفعل ما كان يترتب عليه من فتك بالسكان، وأسهم وباء ٨٣٧هـ/١٤٣٤م، في إيجاد بيئة خصبة لطاعون ٨٣٩هـ /١٤٣٦م، فارتفعت الوفيات وقلت الولادات، وانهار عدد السكان، وبالتالي زاد من حدة النزيف الديموغرافي، محدثا خلخلة حقيقية أثرت في البنية السكانية مخلفة خسائر بشرية فادحة في المجتمع، يصعب تعويضه في فترة زمنية معينة، وذلك راجع إلى تكرار الكوارث الطبيعية، وتقاربها الزمني .

ثانيا: استمرار الطاعون سنتان، مكنه من الزحف ببطء، حتى شمل جميع المناطق اليمنية مما أطال الهدر الديموغرافي في ظل غياب أي رؤية سياسية، أو علمية، أو طبية .

ثالثا: قلة ثقافة المجتمع الطبية التقليدية وعجزهم في إيجاد علاج يقيهم من مرض الطاعون ومقاومته والحد من انتشاره .

رابعا: الجهل المستشري في أوساط اليمنيين آنذاك، مما جعلهم لا يبذلون أي جهد يقيهم من هذا المرض المعدي والخطير .

خامسا: النظرة الدينية الضيقة أو العاجزة لمقاومة هذا المرض، فالناس يعتبرون الميت بهذا المرض شهيدا، مصداقا لذلك ما كان يقوم به الفقيه تقي الدين عمر بن عيسى الخطيب، الذي توفى بهذا الطاعون، حيث كان يقوم بدفن الغرباء ويحملهم إلى المقابر(١)، ذلك كله سهل انتشار العدوى، وانتقال المرض بين

[1]- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، م، س، ص١١٢ .

الأشخاص والعائلات والقبائل والقرى، ومن ثم زاد من حدة النزيف الديموغرافي . ومجمل القول فإن مرض الطاعون يفوق جميع الأمراض الوبائية، سواء في قوة انتشاره وسرعته، أو في شدة هلاك الساكنة التي أصابها.

وخلاصة القول فإن هذا المرض الخطير كان من أعنف وأخطر الكوارث التي ضربت اليمن خلال هذا العصر، فقد حصد الكثير من أرواح ساكنة المدن اليمنية وأريافها على حدٍ سواء، والذين يمثلون الركيزة الأساسية في البناء والتنمية.

المطلب الثاني:

الأثر الاقتصادي

كان لهذا الطاعون تأثيرا بالغا في الميدان الاقتصادي، فالعنصر البشري يعد الركيزة الأساسية للحياة الاقتصادية كون الطاعون أدى إلى هلاك عدد كبير من ساكنة اليمن آنذاك، كالفلاحين والصناع والحرفيين، وهذه الفئات تعد المرتكز الأساسي لاقتصاد أي بلد وبهلاك هذه الشريحة أدى إلى ضعف الإنتاج، وإلى انعدام السلع التجارية وانعدام الأقوات، حيث تشير المصادر التاريخية التي اهتمت بذكر هذا الطاعون أنه عصف وبنسبة كبيرة العواصم التجارية ذات النشاط التجاري والزراعي والواقعة على خطوط التجارة، والحواضر السلطانية الموفورة العمران خاصة، والمدن والقرى التي كانت المزود الرئيس لهذه المدن بالسلع والمواد الغذائية والمواشي وغيرها، مثل مدينة عدن وأبين وتعز وزبيد وإب وصنعاء وصعدة، ولكل مدينة من هذه المدن خصوصية تنفرد بها عن غيرها، بموقعها الجغرافي، وبحركتها التجارية والحرفية، وفي مقدمة هذه المدن عدن التي كانت تعد بمثابة العاصمة الاقتصادية لليمن، ومحطة توقف وتزود للسفن التجارية خلال فترة الدراسة، حيث وصفها القلقشندي بأنها مدينة ذات حط وإقلاع (١)، ومما جاء في وصف الرحالة والجغرافيين والمؤرخين لعدن آنذاك أنها بلد جليل عامر آهل بالسكان دهليز الصين وفرضه اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارة كثير القصور مبارك على من دخله(٢). ولاشك أن الحركة التجارية انكمشت في هذه المدينة، بسبب هلاك نسبة كبيرة من ساكنتها جراء تعرضها لطاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، فقد هلك من أهل عدن فيه بضعة عشر ألفا (٣)، وبالتالي إن وفاة العدد المذكور –آنذاك – من ساكنة عدن، أثر سلبا على النشاط التجاري

[1]- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت٨١٢هـ/١٩٤١م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، جمع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ج ٥، ص١٠.

[2]- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه، محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، السلسلة الجغرافية١١، ص٨٤.

[3]- ابن الديبع: قرة العيون، ص٤٨٣، ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، ص٥٧٢.

والحرفي، فقد كان لتجار عدن –آنذاك – أموالا كثيرة، أو ربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة مابين يديه من الأموال(١)، فإذا ما قورنت هذه الوضعية بما تعرضت له عدن من وباء الطاعون المذكور تبين مما سبق أنه قضى على شريحة مهمة من التجار والحرفيين والصناع، فقد تعددت بها مختلف الصناعات والحرف مثل صناعة العطور والحلي(٢)، والثياب العدنية(٣) والزجاج(٤) وغيرها من الصناعات والحرف، وزاد الأمر سوءاً زحف الطاعون نحو لحج وأبين(٥) وتسبب في هلاك عدد كبير من سكانها، وتعد لحج وأبين على وجه الخصوص المزود الرئيس لمدينة عدن بالمواد الغذائية والحبوب والماشية، وإلى أبين تنسب عدن، وذلك لأن برهم وفواكههم وخضرهم منها لكثرة القرى والمزارع بها(٦)، وفي هذا الصدد وصف الهمداني أن مخلاف أبين متصل بمخلاف لحج، وهو خصب التربة آهل بالسكان، وقد نشطت فيه زراعة القطن والموز وغيره من الخضروات والفواكه ودرت على أهله أرباحا طائلة(٧). ويتضح لنا أن الطاعون ومضاعفاته السلبية كانت أكثر تأثيراً على المزارعين بحيث تراجعت مساحات الأراضي الزراعية وأصابها التراجع والركود بموت شريحة مهمة كانت تعمل بالأراضي الزراعية .

والجدير ذكره أن الطاعون امتد ليشمل مدينة تعز ثم ثعبات وكان يموت في اليوم الواحد من الخمسمائة إلى الألف، وتعداها إلى مدينة إب وجهاتها، حيث أشاروا أن مدينة تعز حاضرة ملك اليمن وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها(٨)، والراجح أن جهات تعز وإب عرف عنها خصوبة تربتها وتنوع محاصيلها الزراعية والحيوانية وتشتهر بتربية المواشي وجودتها، ومن ثم كانت تصدر منتجاتها الزراعية والحيوانية إلى مختلف جهات اليمن وتباع بأسعار مرتفعة نظرا لطيب لحمها وجودة جلودها فقد بلغ ثمن الثور الجندي منها ثلاثين دينارا مطوقا(٩).

١- ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة بن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزء أول، قدم له وحققه، محمد عبد المنعم العريان، وراجعه وأعد فهارسه، مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٦٠

٢- ابن المجاور، محمد بن مسعود بن علي: صفة بلاد اليمن ومكه وبعض الحجاز(المسمى تاريخ المستبصر)، تحقيق، اوسكر لوفغرين، طبع ليدن، مطبعة بريل، سنة١٩٥١م، ص٢٤٨- ٢٣٣.

٣- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد: مختصر البلدان، طبع ليدن، مطبعة بريل، سنة١٩٦٧، ص٣٦،

٤- ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص١٤٨.

٥- ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص٤٨٣،ابن الحسين: غاية الأماني، القسم الثاني، ص٥٧٢.

٦- المقدسي: أحسن التقاسيم، م، س، ص٨٥.

٧- الهمداني، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب: كتاب الإكليل، ج٢، حققه وعلق عليه، محمد بن علي الأكوع، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ، ص٥٤ .

٨- رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار، م، س، ص٢٥٨.

٩- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب، تحقيق، محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٣١٦.

وبلغ ثمن الجلد منها بعشرة مثاقيل وأكثر وإلى عشرين(١)، كما بلغت من الشهرة أيضا البقر الخديرية(٢)، الخديرية(٢)، وبالنظر إلى النزيف الديموغرافي الذي خلفه هذا الطاعون لسكان هذه الجهات، وبالمقارنة بما وصفه الرحالة والجغرافيون لهذه المدن ومدينة تعز على وجه الخصوص، وبالتالي فإن وفاة العدد المشار إليه سابقاً في جهات تعز من جراء طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، أثر سلبا على النشاط الزراعي والحيواني، وذلك بوفاة العاملين في مجال الزراعة وتربية الماشية .

يبدو من خلال ما ذكرته المصادر أن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، كان شديد الوطأة في الجهات الشمالية والجبلية، وقد يرجع ذلك إلى كثافة السكان وقربها من المحاور التجارية الرئيسية، حيث كان يربط بين صنعاء وعدن طريقاً تجارياً جبلياً يبدأ من عدن إلى الجؤة والجند وذي أشرق وإب وذمار وصنعاء(٣)، حيث أكدت أن الطاعون المذكور كثر في الجبال ومات بسببه خلائق لا يحصون(٤).

والجدير بالذكر أن هذا الإقليم اشتهر بخصوبة أراضيه وتنوع محاصيله ومنتجاته الزراعية، ورخاء أسعاره فلم تهمله كتب الرحاله والجغرافيين والمؤرخين آنذاك، وما ذلك إلا دليل على أن اليمن عموما كانت تنعم بالخير الوفير وازدهار الحياة الصناعية والتجارية، مصداق ذلك ما ذكره الهمداني من أن مخلاف ذي جرة وخولان يسمى خزان' اليمن وتسمى ذمار ورعين والسحول مصر اليمن، لان الذرة والبر والشعير تبقى في هذه المواضع المدة الكثيرة(٥)، وفي السياق ذاته يصف ابن رستة صنعاء بقوله:"ليس باليمن ولا ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة أعظم منها ولا أكثر أهلا وخيرا"(٦)، وتبعا لذلك تفيد المصادر السابقة أن الحركة التجارية بصنعاء كانت نشطة ويكفي أن نذكر رواية الرازي التي تشير إلى وجود مايقرب من أربع وخمسين معصرة للسمسم(الجلجلان)، وحوالي ثلاثة وثلاثين مطحنة لطحن القرظ الذي يدبغ به الجلود والأدم(٧)، بالإضافة إلى وجود شريحة كبيرة من اليد العاملة المدربة في مدينة صنعاء وغيرها، والتي تعمل في

---

[١]- الهمداني: الصفة، م، س، ص٣٢٠.
[٢]- الهمداني: الصفة، م، س، ص٣٢٠ .
[٣]- الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي(ت٣٤٦هـ/٩٥٣م): مسالك الممالك/ تحقيق: محمد جابر عبد العال، الجمهورية المتحدة، المتحدة، وزارة الإرشاد القومي، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص٢٧ـ ٢٨.
[٤]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١٠٩، الخزرجي: العسجد، م، س، ص٥١٥، بامخرمة: قلادة النحر، مجلد٣، م، س، ص٣٥٦٢ـ ٣٥٦٣.
[٥]- الهمداني: الصفة، م، س، ص٢١٤.
[٦]- ابن رستة، أبو علي احمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، المجلد٧، ويليه كتاب البلدان، تأليف احمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، طبع مدينة ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م، ص١٠٩.
[٧]- الرازي: تاريخ مدينة صنعاء، م، س، ص١٦٤.

المجال الحرفي والصناعي، حيث وجدت لهم خانات كثيرة ومحلات فيها خلق كثير يعملون أواني الجزع وأنواع الخرز(١).

ويتضح أن الطاعون ألحق تدميراً وتآكلا في قوى الإنتاج وفقدان اليد العاملة المدربة وتوقفت المعامل والمنشآت الصناعية وتقلصت المساحات الزراعية. لاسيما في المناطق الخصبة مثل صنعاء وغيرها من المناطق الشمالية والجبلية .

وكانت مدينة صعدة وحجة وغيرها من المدن كأشظب والعميشة(٢) من المدن التي شملها طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، ومن المعروف أن مدينة صعدة اشتهرت بجودة الكروم، وكثرة الفواكه وعمل الدباغ(٣) واستخراج الحديد الصلب وتعدينه، وكان يصنع بهذه المدينة الركاء الجيد والأنطاع الحسنة ومنها يرتفع أدم جيد(٤)، ومن ثم تفيد هذه النصوص أن الحرفيين والمزارعين كانوا أكثر عرضة وتضررا من غيرهم في الجانب الحرفي والصناعي بسبب قلة الإنتاج، وانعدام اليد العاملة .

وهكذا يمكن أن نستنتج من خلال الإشارات السالفة إلى أن البلاد كانت تعيش من جراء هذا الطاعون انحطاطا وتراجعا اقتصاديا خطيرا أثر على باقي القطاعات الأخرى،نظراً للنقص الكبير في اليد العاملة الفتية والمدربة، وكان نصيب المدن الرئيسية كبيراً مما أدى إلى جمود رأس المال الصناعي وضعف الاقتصاد اليمني آنذاك.

المطلب الثالث

الأثر الديني والعلمي

إن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن فئة العلماء والفقهاء تمتعت بمكانة مرموقة بين أفراد المجتمع اليمني خلال العصر الرسولي، ومن جاء بعدهم، فحملو لواء الوعظ والإرشاد وإمامة المساجد والفتوى والتدريس ومساعدة المحتاجين وفض النزاعات والدفاع عن العامة أمام السلطات الحاكمة الجائرة، كل ذلك مكنهم من التأثير الكبير على المجتمع بشكل عام وفي المجال الديني والعلمي بشكل خاص.

ولقد ساهم العلماء والفقهاء في قضاء حوائج الناس والإصلاح بينهم وضربوا أروع الأمثلة في فعل الخير وترجموا ذلك إلى واقع عملي اتخذ أشكالا مختلفة مثال ذلك الفقيه الصالح جمال الدين محمد بن أبي

١- ابن رستة: الأعلاق النفيسة، م، س، مجلد٧، ص١١٢
٢- ابن الديبع: فرة العيون، م، س، ص٤٨٣- ٤٨٤ .
٣- الهمداني: الإكليل، ج١، هامش، ص٦٤ .
٤- المقدسي: أحسن التقاسيم، م، س، ص٨٦ .

السرور البريهي (ت٨٤٠هـ/١٤٣٧م)، كان مشهورا بفعل الخير محبوبا عند الناس كثير المجابهة في السعي وراء جلب المصالح لأبناء مجتمعه(١)، فضلا عن دورهم في محاربة بعض العادات السيئة التي كانت متفشية بين الناس، وفي مواجهة أصحاب السلطة والمال والتصدي لسياسة الحكام في فرض الضرائب وغيرها، وكان من أبرز هؤلاء العلماء والفقهاء الشيخ أحمد بن علوان في رسالته غرس الشيطان(٢)، فكانوا خير من تثق بهم العامة، والواقع أن ذكر المصادر التاريخية وكتب التراجم لهؤلاء العلماء والتركيز عليهم أثناء تعرض البلاد لطاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، لم يكن اعتباطيا بل كان موازيا لما كان لهم من دور بارز في الحياة السياسية، والاجتماعية والدينية ومنزلة عالية في قلوب العامة .

وتشير القرائن إلى وجود سلوكيات استسلامية من قبل العلماء والفقهاء تجاه طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م بحجة أن ذلك يعتبر هروبا من القدر، وهذا ما أكده أحد المؤرخين من أن الفقيه جمال الدين محمد بن يوسف الأشرفي الكلالي توفى بطاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، ولم يفر منه(٣)، وفي السياق ذاته يذكر أن الفقيه الواعظ تقي الدين عمر بن عيسى الخطيب، كان في أيام الفناء بهذا الطاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، يدفن الغرباء ويحملهم إلى المقابر(٤)، ومما يصدق حضور هذا السلوك في ذهنيات العلماء والفقهاء وعدم اكتراثهم من مرض الطاعون أن الفقيه تقي الدين المذكور سابقا، قبل أن يلقي خطبه الجمعة نعى نفسه وأعلم الحاضرين بقرب موته(٥) الذي توفى بمرض طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، ومن ثم يعكس هذا السلوك الاستسلامي فكرة مفادها أن من مات بالطاعون شهيداً، ويفيد أن الطاعون واجه بذهنيات سلبية زادت من تفاقم العدوى وتكاثر الموتى في صفوف العلماء والفقهاء، لذلك ظهر خلل ديني تمثل في وفاة طبقة مهمة من العلماء والفقهاء.

ولقد أدى طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م، الذي تعرضت له اليمن إلى أن الموت أصاب كل الفئات الاجتماعية، غير أن المصادر خصت الوجهاء من المجتمع، بما فيهم العلماء والفقهاء والمشائخ، وأشارت إليهم بأسمائهم والمدن التي سكنوها، مثل: الحافظ جمال الدين محمد بن أبي بكر الخياط وقاضي تعز العرشاني وأخيه القاضي أبي بكر، وقاضي الدملوة وجمع من الفقهاء والمشائخ(٦)، وممن مات من العلماء والفقهاء بهذا الطاعون في جهات إب

١- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، م، س، ص١٤٣.
٢- ابن علوان، أحمد(ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م): ديوان الفتوح، تحقيق، عبد العزيز سلطان طاهر المنصوب، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٤٩٨- ٥٠٠.
٣- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، م، س، ص٩٢.
٤- البريهي: طبقات صلحاء اليمن، م، س، ص١١٢.
٥- المصدر السابق نفسه.
٦- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١١١- ١١٢، قرة العيون، م، س، ص٤٨٣، بامخرمة: قلادة النحر، ج٣، ص٣٥٦٢.

والجند منهم قاضي الجند الفقيه محمد بن ابي بكر الجبلي وعبد الولي محمد الوحضي، وإسماعيل بن عبدالله بن محمد الريمي، والفقيه محمد بن عبدالله الكاهلي بمدينة إب(١)، وغيرهم وفي الإطار نفسه هناك علماء بمدينة صنعاء هلكوا بهذا الطاعون، ومنهم إمام الزيدية علي بن صلاح، وكثير من أعيانهم وفقهائهم(٢)، ومن العلماء الكبار الذين هلكوا بهذا الطاعون العلامة أحمد بن يحيى حايس، والإمام المهدي بالظفير(٣)، ومما تقدم يتضح لنا جليا أن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م كان له انعكاساً خطيراً على الجانب الديني والثقافي، حيث قضى على أسر علمية كان لها دورا بارزا في نشر العلم وفعل الخير وتقديم المساعدة في مختلف مناطق اليمن التي أصابها الطاعون، وفيما يلي نبين بجدول لبعض أسماء العلماء والفقهاء الذين هلكوا بهذا الطاعون.

جدول رقم (١) لبعض العلماء والفقهاء الذين توفوا بطاعون ٨٣٩هـ /١٤٣٦م

اسم الهالك	وظيفتة	سنة وفاته	مكان وفاته	اسم المصدر
عز الدين محمد إبراهيم بن علي المرتضى	داعية وقاضياً ومؤلف	٨٤٠هـ	صنعاء	البريهي، طبقات صلحاء اليمن، م، س، ص٢٠
أبو الحسن علي بن يحيى العمراني	عالماً ووزيراً	٨٤٠هـ	صنعاء	البريهي، الطبقات، م، س، ص٢٢
عبدالله عبد الرحمن جمال الدين	فقيهاً	٨٤٠هـ	حراز	البريهي، م، س، ص٤٨. ٥٥
عفيف الدين بن علي بن محمد بن سالم	فقيهاً وقاضياً	٨٤٠هـ	المخادر. اب	البريهي، م، س، ص٥٥.٥٦
وجيه الدين عبد الرحمن ابن	فقيهاً	٨	المخادر إب	البريهي، م، س، ص٦٧.٦٩

[١]- ابن الديبع: بغية المستفيد، م، س، ص١١١- ١١٢، الخزرجي: العسجد، م، س، ص٥١٥، بامخرمة: قلادة النحر، ج٣، ص٣٥٦٢.
[٢]- ابن الديبع: قرة العيون، م، س، ص٤٨٣- ٤٨٤، الخزرجي: العسجد، م، س، ص٥١٥، الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦.
[٣]- الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦.

الإمام صفي الدين أحمد بن محمد بن سالم	وقاضياً	٨٣٩هـ		
جمال الدين محمد بن عمر بن سعيد بن إبراهيم	فقيهاً	٨٤٠هـ	إب	البريهي، م، س، ص٧٤.٧٥
صفي الدين أحمد بن علي بن حامد	عالماً وقاضياً	٨٣٩هـ	الشوافي	البريهي، نفسة، ص٧٩
إبراهيم ابن صفي الدين أحمد بن علي بن حامد	من بيت علم	٨٣٩هـ	الشوافي	البريهي، نفسه، ص٧٩
جمال الدين محمد بن يوسف الأشرقي الكلالي	فقيهاً	٨٣٩هـ	إب	البريهي، نفسة، ص٩٢
جمال الدين محمد بن عبدالله الكاهلي	فقيهاً ومدرساً	٨٣٩هـ	إب	البريهي، م، س، ص٩٤.٩٥
صفي الدين أحمد بن عبدالله الكاهلي	عالماً	٨٣٠هـ	إب	البريهي، م، س، ص٩٥.٩٦
شمس الدين يوسف بن محمد غازي	فقيهاً وأميراً	٨٣٩هـ	إب	البريهي، م، س، ص١٠٥
تقي الدين عمر بن عيسى الخطيب	مدرساً وخطيباً	٨٣٩هـ	إب	البريهي، م، س،ص١١١
جمال الدين محمد بن عمر	فقيهاً وعالماً	٨٣٩هـ	إب	البريهي، م، س، ص١٣٣، ١٧٦
وجيه الدين عبد الرحمن بن عبدالله بن ابي بكر	قاضياً	٨٣٩هـ	إب	البريهي، م، س، ص١٣٣
جمال الدين محمد بن محمد بن عمر	قاضياً	٨٣٩هـ	ذي أشرق	البريهي، م، س، ص١٣٧

الفقيه هاشم	فقيهاً	٨٣٩هـ	ذي السفال	البريهي، م، س، ص١٣٩
شرف الدين أبو القاسم بن محمد بن محمد الشعبي	فقيهاً	٨٣٩هـ	ذي السفال	البريهي، م، س، ص١٣٩
برهان الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البريهي	فقيهاً	٨٣٩هـ	ذي السفال	البريهي، م، س، ص١٤١
عفيف الدين سعيد بن عمر السورقي	فقيهاً ومدرساً	٨٣٩هـ	جبل سورق	البريهي، م، س، ص١٥٤
عفيف الدين ناجي بن سعيد السورقي	فقيهاً	٨٣٩هـ	جبل سورق	البريهي، مصدر سابق، ص١٥٤
شمس الدين علي بن داود الهمداني، المشهور بالحداد	مزارعاً ومن الصالحين	٨٣٩هـ	جبل سورق	البريهي، نفسه، ص١٥٦. ١٥٨.١٥٩
جمال الدين محمد بن أحمد القهامي	فقيهاً ومدرساً	٨٣٩هـ	المغربة	البريهي، نفسه، ص١٥٩
وجيه الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن شقير	فقيهاً ومدرساً	٨٣٩هـ	الجند	البريهي، نفسه، ص١٦١.١٦٢
جمال الدين محمد بن عبدالله الضبوعي	من الصالحين	٨٣٩هـ	العريبين	البريهي، نفسه، ص١٥٦
يوسف بن عمران بن نعمان	فقيهاً	٨٣٩هـ	المغربة	البريهي، نفسه، ص١٥٩
جمال الدين محمد بن علي	فقيهاً	٨٣٩هـ	اللفج	البريهي، نفسه، ص١٦٤
عفيف الدين عباس بن علي الكريمي	شيخ علمٍ	٨٣٩هـ	الأشعوب، عزلة سامح	البريهي، نفسه، ص١٧١

رضي الدين أبو بكر بن محمد بن أبي بكر	فقيهاً	٨٣٩هـ	جبن	البريهي، نفسه، ص١٧٢
جمال الدين محمد بن علي بن عبد الرحمن الجبرتي	شيخ علمٍ	٨٣٩هـ	تعز	البريهي، نفسه، ص٢٢٧.٢٢٦
ولي الدين عبد الولي بن محمد بن عبدالله بن حسن الوحصي الخولاني	فقيهاً	٨٣٩هـ	تعز	البريهي، نفسه، ص٢٢٨. ٢٢٩
جمال الدين أبو حامد محمد الأكبر بن أبي بكر بن محمد بن صالح الهمداني	عالماً	٨٣٩هـ	تعز	البريهي، نفسه، ص٢٢٩. ٢٣٠. ٢٣١
عبد الرحمن بن رضي الدين أبو بكر يوسف بن إسحاق	فقيهاً وعالماً	٨٣٩هـ	عدن	البريهي، نفسه، ص٣٢٩
محمد بن مسعود بن سعد بن شكيل	عالماً وقاضياً	٨٣٩هـ	عدن	البريهي، نفسه، ص٣٣٦

إجمالاً مما سبق نجد أن الحياة العلمية والدينية آنذاك أصابها الضعف والإنهيار نتيجة وفاة عدد كبير من العلماء والفقهاء والأطر الثقافية، فقد أشار الواسعي إلى أنه بسبب طاعون٨٤٠هـ/١٤٣٧م، أغلقت الدور والمساجد وتعطلت المعابد والمشاهد(١)، ومن ثم هذا الفراغ البشري خلق جواً من اليأس والقلق أوحى للمؤرخين المعاصرين لهذا الطاعون بأن ركزوا على فئة العلماء والفقهاء .

تعليق واستنتاجات:

نستنتج بعد مقاربة النصوص المتعلقة بهذا الطاعون إلى ما يلي:

١. نزوع المؤلفين اليمنيين في هذا الطاعون إلى العموم والاهتمام بالقضايا السياسية والعسكرية التي كانت تشهدها البلاد آنذاك.

[١]- الواسعي: فرجة الهموم والحزن، م، س، ص٢٠٦.

٢. تفسير الميل الواضح في النصوص التاريخية اليمنية إلى أن مرض الطاعون كان يواجه بالاستسلام وأن المطعون شهيد .

٣. إن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، وافد من البحر عبر ميناء عدن، ومنها تسرب إلى بقية الأراضي اليمنية .

٤. إن طاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م، ارتبط ارتباطا وثيقا بما كانت تعانيه بعض الجهات من ارتفاع لدرجة الحرارة والرطوبة .

الخاتمة:

لا يسعنا في نهاية هذا البحث أن ننهي هذا البحث إلا أن نشير إلى أن طاعون٨٣٩هـ،١٤٣٦م، تميز بالشدة والشمول وأتى في مقدمة الكوارث الطبيعية التي عرفها اليمن خلال هذا القرن بسبب ماخلفه من خسائر بشرية فادحه، وانعكاسات هذه الخسائر على الحياة الاقتصادية والدينية، ولاشك أن اليمن خلال هذه الفترة كان يعني من الفوضى ومظاهر الضعف، وعلى وجه الخصوص عندما كانت الدولة الرسولية تمر بطورها النهائي، مما جعل الأمور تسير دون أن تكون للدولة أي دور في مواجهة الطاعون وأن السلطة السياسية لم تقم بأي إجراءات علمية ناجحة لمواجهة هذا الطاعون، وإنما اتسم دورهم في تقديم الصدقات والدعاء والتقرب إلى الله لرفع ماحل بهم من بلاء، وزاد الأمر سوءاً إلى جانب الطاعون تلاشي وسقوط الدولة الرسولية ليزيد الوضع تأزما وصعوبة .

من خلال النصوص التي تبين أن طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م استمر لمدة سنتين متنقلا بين أوساط المجتمع، وأنه أثر تأثيراً بالغاً في ديموغرافية البلاد، وأدى إلى نقص حقيقي في عدد من السكان، وإلى هلاك عدد كبير من الفلاحين والحرفيين، مما تسبب في تقلص مساحة الأراضي الزراعية وخراب دور الصناعة، ولأن اليمن كانت تنعم بمستوى اقتصادي متميز أشار إلى ذلك الجغرافيون والرحالة العرب الذين زاروا اليمن قبل حلول الطاعون المذكور، حيث وصفوا اليمن بأنه بلد متنوع بمنتجاته الزراعية وبرخاء أسعاره وجودة لحومه إلى غير ذلك من الأوصاف، وما ذلك إلا دليل على أن اليمن عرف نشاطا اقتصاديا مرموقا، ولاشك أن طاعون٨٣٩هـ/١٤٣٦م أسهم في تراجع الزراعة والصناعة واضمحلالها، وهو ما هدف البحث إلى الوصول إليه في ثناياه .

كما كان لطاعون ٨٣٩هـ/١٤٣٦م دور مهم وخطير في تراجع اليمن وأنه قضى على عدد كبير من خيرة العلماء والفقهاء، وهو ما وضحناه سابقا في الأثر الديني والعلمي ونجد ذلك في كتاب طبقات صلحاء اليمن للمؤرخ عبد الوهاب بن عبد الرحمن المعروف بالبريهي وغيره من كتب التراجم التي تشير إلى وفاة عدد كبير من رجال الدين والقضاة، وكان لذلك أعظم النتائج على الجانب الديني والعلمي، وهو ما هدف البحث لتوضيحه وتبين من خلال ذلك أنه لم يقع عزل المصابين بالطاعون، بل على العكس من ذلك كانت لقوة التقاليد الاجتماعية والدينية وغسل الميت ودفنه بالإضافة إلى ضعف مقاومة المجتمع للمرض أسهم في نشر المرض وترويجه .

التوصيات والمقترحات:

١. قيام وزارة الصحة بزيادة التثقيف الصحي بخطر وباء مرض الطاعون، وفق برامج معتمدة دولياً من خلال الأجهزة الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية .

٢. تنظيم مسيرات إعلامية مبرمجة يساهم بها المختصون من الأطباء. تجوب الريف اليمني، لتزويد المواطنين بالمعلومات التي تؤدي للوقاية من مرض الطاعون .

٣. تشكيل لجان مركزية ومحاجر صحية في مدن الموانيء البحرية، كونها مصدر رئيس لدخول المرض إلى الجمهورية اليمنية .

٤. إدخال مواد منهجية ضمن مقررات الدراسة في المدارس الأساسية والثانوية، بغرض التعرف على مرض الطاعون وأسبابه وأنواعه، والحد من انتشاره والوقاية منه .

٥. التواصل مع المنظمات الدولية المتعلقة بالصحة والبيئة لمعرفة كافة المستجدات والخبرات التي توصلت إليها الأبحاث المخبرية للحد من المرض وانتشاره .

٦. توصية الجهات المعنية والعلماء بتصحيح النظرة المجتمعية تجاه الأمراض، وأن ديننا الإسلامي أمر ببذل الأسباب الشرعية لمواجهة أي مرض ومنها أمراض الطاعون.

قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن الحسين، يحيى: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة، محمد مصطفى زيادة، القسم الثاني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٢٨٨هـ/١٩٦٨م.

٢. ابن الديبع، أبو الضياء عبد الرحمن بن علي: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، حققه وعلق عليه، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م .

٣. ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق:عبد الله الحبشي،مركز الدراسات اليمنية، صنعاء،١٩٧٩م .

٤. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد: مختصر البلدان، طبع ليدن، مطبعة بريل، سنة١٩٦٧م.

٥. ابن المجاور، محمد بن مسعود بن علي: صفة بلاد اليمن ومكه وبعض الحجاز(المسمى تاريخ المستبصر)، تحقيق، اوسكر لوفغرين، طبع ليدن، مطبعة بريل، سنة١٩٥١م .

٦. ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة بن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزء أول، قدم له وحققه، محمد عبد المنعم العريان، وراجعه وأعد فهارسه، مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

٧. ابن رستة، أبو علي احمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، المجلد٧، ويليه كتاب البلدان، تأليف احمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، طبع مدينة ليدن، مطبعة يريل، ١٨٩٣م .

٨. ابن علوان، أحمد(ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م): ديوان الفتوح، تحقيق، عبد العزيز سلطان طاهر المنصوب، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

٩. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، المجلد الأول، باب الجيم، دار المعارف، القاهرة .

١٠. ابن هيدور: ماهية الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم(٩٦٠٥).

١١. الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي (ت٣٤٦هـ/٩٥٣م): مسالك الممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، وزارة الإرشاد القومي، الجمهورية المتحدة .

١٢. الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي(ت٣٤٦هـ/٩٥٣م): مسالك الممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، الجمهورية المتحدة، وزارة الإرشاد القومي، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

١٣. الألباني، محمد بن ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المجلد الرابع، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣، ١٤٠٦هـ/٢٠٠٠م، رقم الحديث (١٩٢٨) .

١٤. البريهي، عبد الوهاب عبد الرحمن السكسكي: طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

١٥. البزاز، محمد الأمين: تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٢م.

١٦. البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، باب وضع اليد على المريض والدعاء له بالشفاء ومداواته بالصدقة، ج٣، دار الفكر، دون مكان وتاريخ الطبع .

١٧. الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن علي الأكوع، المجلد الأول، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

١٨. الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ/١١٨٨م): معجم البلدان، مج١، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ .

١٩. الخزرجي، أبو الحسن علي ابن الحسن:العسجد المسبوك فيمن ولي من الملوك، طبعة ثانية مصورة،١٤٠١هـ/١٩٨١م، الجمهورية العربية اليمنية، وزارة الإعلام والثقافة، مشروع الكتاب ٦/١ .

٢٠. الرازي، احمد بن عبد الله(ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م): تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق ودراسة: حسين عبدالله العمري، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الفكر، دمشق، سوريا .

٢١. العرشاني، نظام الدين سري بن فضيل(ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): كتاب الاختصاص ذيل تاريخ مدينة صنعاء، حققه: حسين عبدالله العمري، ط٢، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٢٢. القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت٨١٢هـ/١٩٤١م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، جمع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م، ج ٥ .

٢٣. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه، محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، السلسلة الجغرافية(١).

٢٤. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه، محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، السلسلة الجغرافية١١ .

٢٥. الهمداني، أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م): صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٢٦. الهمداني، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب: كتاب الإكليل، ج٢، حققه وعلق عليه، محمد بن علي الأكوع، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ .

٢٧. الواسعي، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ط٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢٨. بامخرمة، أبو الطيب بن عبدالله بن احمد(ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م): قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، المجلد الثالث، دراسة وتحقيق: محمد يسلم عبد النور، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.